

في الأدب العربي

القصة المصرية

للأستاذ جيب

أستاذ الأدب العربي في مدرسة اللغات الشرقية بجامعة لندن

جاء ابتداء ظهور القصة كفن من فنون الأدب في مصر متأخراً ، إلى حد أننا نكتس العذر لمن يدّرس الأدب المصري . إذا هو رجع إلى ما أنتجت من قبل « مدرسة الكتاب السوريين » من الآثار ليبحث عما إذا كان هناك في الأصل علاقة بينها وبين نمو القصة .

وفيما عدا ما يحتمل من أن نجاح القصصين من السوريين قد شجع الكتاب المصريين على إنتاج نوع من القصص يلائم شعبهم ، سبقي (القصة المصرية) وهي موضوع هذا المقال ، أثناء البحث مستقلة تمام الاستقلال عن تاريخ القصة السورية .

أما المؤثرات الغربية ، فقد ظهرت بوضوح فيها وفي ذلك من الأطوار كما أنها استخدمت استخداماً مباشراً ، ولكن على الرغم من هذا فإن « آداب التسلية » في مصر قد ظلت لمدة طويلة تعتمد على ما خلفه العرب من النماذج الأدبية العالية ، والنماذج العرفية التي درج الناس عليها . فلما آن لها أن تتحرر من تبعيتها لتلك النماذج ، كان تحررها بطيئاً ، وبعد تردد ، ومن ثم كان نجاحها في ذلك الانجلاء فردياً موزعاً ، ولم يكن نتيجة لحركة تطور مستقيمة .

ونحن في الواقع إذا أردنا أن نتحدث عن « نمو » القصة في مصر ، فلا بد أن نحدد في معنى هذا اللفظ « القصة » حتى يشمل شعبة واسعة من فنون الكتابة يربطها جميعاً رباط الخيال القصصي ، وأن كان بينها كثير لا يمكننا مطلقاً أن نسميه قصة إذا قصدنا المعنى الحقيقي لهذا اللفظ .

ويعزى تأخر مصر في هذا الميدان ، ميدان القصة ، إذا هي توردت بتوكيا والهند — وما المراكز الأساسية الأخرى للثقافة الإسلامية — إلى عدة عوامل أوضحناها في مقال سابق في صدد الكلام عن الأسباب الأدبية ، والأسباب التعليمية التي كانت عقبة في سبيل ظهور آداب للتسلية من نوع جديد في مصر . ونستطيع أن نضيف اليوم إلى تلك العوامل أن المصريين وجدوا غنية ومتاعاً فيما خلفه العرب من آداب عالية متنوعة ، بما لم يكن له مثيل في تلكا اللغتين التركية والأردية ، وهناك بعض عوامل محلية خاصة ستعرض لها في شيء من التفصيل في بحثنا هذا ، ولكننا نحب أن نشير الآن إلى تلك الحقيقة التي تحوى شيئاً ما ستعرض له . وهي أن تلك الطبقة المحصورة التي تعلت تعلماً حديثاً في مصر ، كانت تستطيع أن تجد بنيتها في الأدب الغربي والأدب الإنجليزي . ومن أجل ذلك انعدمت في الدوائر الأدبية البواعث التي تشجع على تأليف كتب التسلية بالعربية . فلما ست الحاجة إلى هذا النوع من الكتب ، كان المسلك الطبيعي الذي سلكه الأدباء هو إقبالهم على ترجمة القصص الفرنسية والإنجليزية ، وفضلوا ذلك على أن يقوموا بإنتاج أدب قصصي جديد لا يرجون له انتشاراً ، إذ كان ذلك العمل يتطلب منهم خلق فن جديد من فنون الكتابة .

ولما كانت هذه القصص قد ترجمت ترجمة مستقيمة ، ولم يراع في اختيارها حالة مصر الاجتماعية ، ولا حالة الثقافة العامة ، ولا الذوق الأدبي في البلاد ، فإن قبول القراء لها على الرغم من عيوبها يدل على أنه كان هناك شعب يتذوق هذا النوع من الأدب ويقدره حتى قبله .

على أن هناك كتاباً يصح اعتباره مقياساً للكفاية والمهارة اللغوية ينبغي أن يتصف بهما من يريد القيام بترجمة قصة أجنبية ، بحيث يجعلها تلائم ذوق شعب ثقافته إسلامية كالشعب المصري ،

ذلك الكتاب هو ترجمة عثمان جلال لقصة « بول وفرجين » فان تلك الترجمة على ما فيها من الاختصار والتصرف في الجملة ظلت محافظة على الروح الاصلية وعلى ما جاء في الاصل من المعاني . أضف الى ذلك أن استعمال السجع في عبارات سهلة . ووضع المؤلف بعض المقطوعات الشعرية محل الافكار الفلسفية التي وردت في الاصل ، قد أكسب هذه الترجمة مسحة عربية . لم توجد مع الاسف في معظم ما عاصرنا أو جاء بعده من الكتب المترجمة . وبمقتضى ذلك نستشهد على ذلك بالفقرة الآتية : « وما أنت أيها الصغير فلا عذر لك في السفر . ولا بد من تسليك القضا . والقدر ، وأن نطعمي أمر الاقارب وان ظللوا وأن تسلي لما به حكموا ، فان سفرك وان كان لأحد يرضاه ، فهو على ما حكم الله . فتقد أنزل تعالى في كتابه العظيم ، على لسان نبيه الكريم : قل لا أسئلكم عليه أجرا الا المودة في القربى . وان سفرك ان شاء الله نعم العنى ، أفضصين الله ما أمر ، أم تسلين للقدر » . وهناك غير هذا الكتاب مئات أخرى بينها عدد ليس بالقليل حرص فيه المترجمون على الاصل الى درجة تختلف قلة وكثرة عما ذكرنا ، ونخص بالذكر تلك التراجم التي قام بها المفلوطي . وان كانت يقصها كثير من مزايها ترجمة عثمان جلال . على الرغم من براعة أسلوب المفلوطي . والذي يعيننا في هذا الصدد الكتب المترجمة من أنها كثيرة وأنها صادقت رواجاً عظيماً . ونستطيع أن نقين ميل الكتاب المصريين الى المحافظة على ما خلفه لهم العرب من الأوضاع الأدبية التقليدية . (الا أن يضيفوا اليه بعض العناصر الجديدة) في تلك القصة التي تعد أول قصة مصرية بالمعنى الذي أشرت الى وجوب اعتباره في صدد الكلام عن القصة المصرية . وهي رواية عزراء الهند أو تمدن الفراعنة لمنشأ الضعيف احمد شوقي . عام ١٨٩٧ . وهي من أوائل مؤلفات الشاعر الشاب احمد شوقي . ولم توضع هذه القصة على نمط قصص ألف ليلة وليلة أو على طراز قصص السيرة ، وانما وضعت على نمط تلك الانا صيص الخرافة الشهيرة التي تعرف بالحواديت . ١ . وقد سار المؤلف في توسيعها على الطريقة التي تتبع في القصص التاريخية . على أني أقرر صراحة أن هذه القصة بما لا يمكن أن يتبينه العقل ، من حيث الخطأ ومن حيث ما حشر فيها حشراً من المخلوقات الخرافية كالسحرة والعرافين ،

١ Hawadit ، تراجع مقدمة قصة « الشيخ سيد العيط » ، لمحمد تيمور فنيا بحث فم بنظر أحد أساطين المؤلفين في اللغة العربية . (المؤلف)

بما لا تكاد تخلو منه صفحة من صفحاتها ، ولكنها ورثت عما سبقها من الحوادث ، المشهورة ميلاً شديداً الى الحركة والمخاطرة ففوض ذلك عليها بعض مساوئها ، وانا لنشر بشئ من اللذة أثناء قراءة الصفحات التي لم تحشر فيها الخرافات لانها تعد بين التفصص الخفى .

أما ما ندين به تلك القصة « للقصة التاريخية » فهو طريقه سرد التاريخ في ثانيا القصة . ولقد تعرضت هذه القصة لشرح عظيمة مصر القديمة . وهي جذيرة بالاعتبار من هذه الناحية . على أن خطرنا الحقيقي انما يرجع الى أنها كتبت بذلك الأسلوب الفخم الذي قد شوق زعامة الشعر في الادب المصري . وبعد التمر المسجوع فيها من أفصح ما عرف من هذا النوع ولقد كانت الفقرات تجري على روى واحد أربع مرات أو خسا في غير إملال . وكانت تتخلل هذه الفقرات بعض المقطوعات الشعرية الرائعة للمؤلف . وأن الانسان للأسف على انه لم يتبع لهذا الأسلوب موضوع آخر ومواد أخرى غير التي استعمل فيها .

بجانب تلك المحاولة التي قام بها شوقي ، ظهرت محاولة أخرى بعد ذلك يضع سترات كانت أبعد نجاحاً وأعظم أثراً وهي التجاء الكتاب الى ذلك الضرب المعروف بالمقامات . وهي تعد في نظر من يدرسون الادب العربي في العصور الوسطى أقرب ضروب الكتابة في ذلك الوقت الى القصة بدناها الحقيقي . ولقد ظلت المقامة تستعمل في شكلها التقليدي حتى أواخر القرن التاسع عشر . وعلى الاخص على يد ناصيف اليازجي وعبد الله باشا فكري . ولكنها كانت في يد هذين الرجلين وغيرها من كتاب مدرستها مقصورة على الموضوعات القديمة ولم يكن لها بحياة عصرهم غير ارتباط قليل .

ولكن ظهر بجانب هذه المقامات نوع آخر لجأ اليه الكتاب فيما طرّفه من الموضوعات وعلى الاخص في النقد الاجتماعي : وأقبل عليه عدد من الكتاب المصريين فأخرجوا طائفة من الآثار الادبية : كانت إحدى المظاهر الخاصة التي امتاز بها الاتاج الادبي في السنوات العشر التي سبقت عام ١٩١٢ وبعد حديث عيسى ابن هشام ، لمحمد ابراهيم المويلحي (١٨٥٨) ١٩٣٠) أقدم وأحسن تلك المجموعة الجديدة ، بل ان هذا الكتاب في تصورات وطريقته ليكاد يصل الى القصة بمعناها الحقيقي . ولقد لجأ المويلحي أيضا في ذلك الكتاب الى الخرافات ، لأن الخط الذي يربط أجزاءه ، هو تجارب أحمد الباشوات

الذين عاشوا في عهد محمد علي ، وقد بحث هذا الباشا من مرقدته ما وجد من الظروف الاجتماعية القريبة التي لم يألفها في القاهرة التي استعالت إلى مدينة أوروبية . وهذه الوسيلة تسمى للمؤلف أن يتخذ في حوار متعالية عصره ، وأن يقارن ذلك بالماضي مظهرا ما في الحاضر من مساوي . أهمها ولع أهله بتقليد الأوروبيين تقليدا مردولا . على أن هذا الكتاب ، كما لاحظ محمود بيومر ، ينقصه الخواص الجوهرية للقصة . وأعني بها الخطأ البسيط ، ولكنه في تصوير الأشخاص فسد نبح إلى درجة جدية بالاعتبار . ولقد أضيف إلى الطبعة الأخيرة لهذا الكتاب جزء آخر سمي « بالرحلة الثانية » غيرت فيه المناظر الأولى بمناظر باريس أبان المعرض العظيم عام ١٨٨٩ . وبذلك تسمى للمؤلف انتقاد مساوي . التشبه بالفرين ، وأوضح معائب المدينة القريبة لدى منابها . ومما هو جدير بالملاحظة أن الباشا لم يرجع ثانية إلى قبره ، ذلك إلى مثله في الكتاب ما يحتمل على الظن بأن المؤلف قد نسي الفكرة التي بدأ بها كتابه .

ولا يعزى نجاح هذا الكتاب وشهرته إلى القصة نفسها ولا إلى مغزاها بقدر ما يعزى إلى براعة الأسلوب والمقدرة على الوصف ، فإن المؤلف يقد تقليدا متقنا للخصائص الحسنة التي يمتاز بها أسلوب المقامة مضاعفا إلى ذلك سهولة حديثه وظرف . ويتخلل عباراته المسجوعة حوار في لغة سهلة حديثة . ولقد يلجأ المؤلف إلى اللفظ العاني الاصطلاحي فيستعمله في غير تردد ، وذلك على الرغم من أن الحوار نفسه كان يتطرق كثيرا إلى عبارات وصفية مسية . وكان السجع مزيجا متقنا من القديم والحديث ، مما أكسب الأسلوب طراقة ورونقا ، وجعل القارئ يستمتع بأثر من الآثار الأدبية الحية جدير بأن يتنافس آثار المفلوطين في الأسلوب مع تفوقه عليها في عمق الحس وحسن الترتيب .

وقد استطاع أن يضيف إلى كتاب المويلحي كتابين آخرين . جرى فيما صاحبهما على سنة المويلحي في اختيار طريقة المقامة للكتابة في النقد الاجتماعي ، وإن كانا أقل منه بآقة ورقة . أولهما « ليالي سطيج » لمحمد حافظ إبراهيم وهو أقوى مناقس لشوقي في زعامة الشعر المصري (١٨٧١-١٩٣٢) وظهر هذا الكتاب عام ١٩٠٧ . وخطة هذا الكتاب بسيطة تلخص في أن جماعة من الناس كانوا يشكون في ليالي متوالية ما يلاقونه من مساوي . إلا حوالا السائدة في مصر ، فيجيبهم على التوالى صوت خفي مينا أسباب ما يضحون منه من المساوي . في ترمسجوع تتخلله بعض المقطوعات الشعرية ، وأصفا لم الهواء . على أن خطة الكتاب تأخذ بعد ذلك في التغير تدريجيا كل كسائل طفت بها الدوائر أو كمنطرب لفساد على صفحات المراه .

حتى يصير الجزء الآخر أكبر منه عبارة عن محاورات في نشر سبل تسليع فيه المعالم الأصلية للكتاب . ولقد قبل هذا الكتاب بحماس وإقبال في الدوائر الأدبية المصرية ، ولكن بما تلت ملاحظتنا هذا المقام أن أصواتا عالية قد ارتفعت في ذلك الوقت منددة باستعمال السجع في مثل هذه المؤلفات .

أما نالي هدير الكتابين فهو « ليالي الروح الخائز » للكتاب السياسي والمؤلف المسرحي محمد لطفي جمعة . ولقد سار المؤلف في هذا الكتاب على طريقة المقامة بالدقة . دون أن يلجأ إلى السجع . ويلاحظ في كتابه أثر كتاب « المدرسة السورية الأمريكية » واضحا خصوصا في هذا النوع من الأتشاء المعروف باسم الشعر المنثور أو الشعر الحر . أما المتحدث في هذا الكتاب فهو روح غير بحسنة كما يفهم من اسمه ، وأغلب هذا الحديث في انتقاد الأحوال الاجتماعية في مصر ، ولقد أشار زيدان بحق إلى جمال هذا الكتاب ونصاحة أسلوبه . وفي نظري أنه في هذه الناحية أهم منه في الناحية الأخرى . ناحية التعدي في الأفكار التي تعرض لشرحها .

وقيل أن أترك هذه المجموعة المتشابهة أحب أن أشير هنا إلى كتاب آخر عظيم الشبه بها وإن امتاز منها في الروح ثم في الأسلوب إلى حد كبير ، ذلك هو مجموعة الفصول التي جمعت تحت عنوان « أين الإنسان » لمؤلفها الشيخ طنطاوي جوهرى . ولقد قدمت هذه الرسالة إلى المؤتمر الدولى الذى انعقد في لندن عام ١٩١١ . أما المتكلم في هذه الرسالة فهو روح سهاوية . وأما الحديث فإنه يدور حول التقدم العالمى والأخاء البشرى . ولم يلجأ الكاتب إلى استعمال السجع . وهذه الرسالة مغفرة للأدب العربى المصرى . وهي جديوة بأن تكون موضوع دراسة خاصة . ولكنى أكتفى هنا بالإشارة إليها لخروجها عن موضوع بحثى .

ويمكننا أن نتبين في هذه المؤلفات عدة محاولات مجتمعة لإيجاد نوع جديد من الأدب . يد حاجة جمهور قارى . جديد . ويتصل بعض الاتصال بمشاكله ونظرائه إلى الحياة ، بحيث يسهل تناوله . ويثير اهتمامه ، ويلائم خياله . على أن أصحابها لم يصادفوا نجاحا في تلك المحاولات لأنها كانت أقرب إلى الأدب العال منها إلى آداب التسلية ، فلم يقبل عليها إلا عدد صغير من خاصة القراء .

وبدل أن يطرقوا موضوعات جدية طريقة قسرى عن الجمهور

والبقية على صفحة ١٩ .

١ راجع المنار أغسطس ١٩٠٨ والملاح يوليو ١٩٠٨ .
٢ المقيس أكتوبر ١٩٠٨ .